شارل كونت أنجو
بين القسطنطينية وتونس والقدس
(١٢٦٦ - ١٢٨٥م)

أ. د. محمود سعيد عمران(*)

ينحدر شارل كونت أنجو Charles Count of Anjou من أسرة كابيه Capitian الفرنسية ، وهو ابن لويس الثامن Louis VIII ملك فرنسا (١٢٢٣ - ١٢٢٦م) ، وبلانش القشتالية Blanche of Castile . وقد ولد شارل فى بداية عام ١٢٢٧م بعد أشهر قليلة من موت أبيه ، وكان له من الذكور ثلاثة أخوة هم لويس التاسع Louis IX الذى خلف والده فى حكم فرنسا(١٢٢٦ - ١٢٧٠م) و روبرت الثانى كونت أراتو Robert II Count of Artois الذى قتل على أرض مصر فى معركة المنصورة خلال معارك الحملة الصليبية السابعة عام ١٢٥٠(١) ، والفونس أف بواتيه Alfonse of Poitiers الذى تزوج من جوانا أف تولوز Joanna of Toulouse(٢) .

لقد مرت طفولة شارل بحياة متوترة مع والدته التى كانت تعمل على استقرار الأحوال داخل فرنسا بعد موت زوجها أثناء وصياتها على ابنها لويس التاسع وصراعها مع النبلاء(٣) ، فلقد انشغلت الأم بالسياسة أكثر من اهتمامها بأولادها عدا لويس ، وكان أقل أولادها اهتمامًا هو شارل كونت أنجو(٤) .

ويوصف شارل بأنه كان متناسق الجسم مفتول العضلات حمرى البشرة وله أنف طويل شأن آل كابيه ، وكان يتمتع بصحة جيدة ، كما وصفه معاصروه بالحيوية والطموح ، وكثيرًا ما كان يتدرب على الصيد والرياضة العنيفة . وقد نال شارل قسطًا وافيا من التعليم فقد درس فى جامعة باريس وأحب العلم والعلماء، وخاصة ما يتعلق بالشعر والفنون . كما أنه كان لا ينام كثيرًا لأنه اعتقد أن النوم إضاعة للوقت . وكان يتكلم قليلاً ويعمل كثيرًا ، ويبتسم قليلاً ويتصرف

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

كراهب(٥) ، ولعل هذه الصفات والظروف التى عاش فيها قد دفعته إلى الاعتماد على نفسه ، حتى اعتقد أنه يمثل إرادة ا لله(٦) .

وإذا كانت عائلة شارل قد قصرت معه فى الجوانب الاجتماعية والعاطفية إلا أنها عوضته فى بعض الجوانب المادية ، فقد كان والده يتمنى أن يكون مولوده ذكرًا حتى يحصل على إقطاعية أنجو ومين Maine ، وقد استجاب ا لله لرغبته ووضعت زوجته بعد وفاته مولودًا ذكرًا هو شارل الذى حصل على هذه الإقطاعية فى عام ١٢٤٧م عندما بلغ العشرين من عمره(٧) .

يضاف إلى ذلك أن والدته وأخاه لويس خططا وهو فى التاسعة عشر من عمره ، أى فى يناير عام ١٢٤٦م لزواجه من بياترس Beatrice أخت مارجريت Margaret زوجه لويس التاسع فتزوجها فى عام ١٢٣٤م ، وكلا الاختين من أبناء ريموند برنجار الرابع Raymond Berengar IV كونت مقاطعة بروفانس Provence ، وكان له بنتان أخريتان هما اليانور Eleanor التى تزوجت فى عام ١٢٣٦م من هنرى الثالث Henry III ملك انجلترا (١٢١٦ - ١٢٧٢م) ، وسانسيا Sanchia وهى البنت المدللة التى تزوجت فى عام ١٢٣٤م من ريتشارد أف كورنول Richard of Cornwall أخو هنرى الثالث . وريتشارد هذا كان له دورًا كبيرًا فى الحروب الصليبية عندما قاد حملته على بلاد الشام ١٢٤٠ - ١٢٤١م(٨) ، كما رشحته البابوية لتولى عرش ألمانيا فى عام ١٢٥٧م عندما انقسم الشعب الألمانى على نفسه عام ١٢٥٦م ، وعندما ألقت البابوية بكل ثقلها فى صراعها ضد أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen(٩) .

وبالإضافة إلى إقطاعية أنجو ومين ، فقد حالف الحظ شارل بزواجه من بياترس أف بروفانس ، فقد كان القانون الاقطاعى يقضى فى حالة عدم وجود أخوة من الذكور ، أن تقسم الإقطاعية بين البنات ، ولكن ريموند برنجار شذ عن هذه القاعدة ، ووهب كل المقاطعة لابنته بياترس لأنه لم يكن راغبا فى تفتيت المقاطعة(١٠) ، خاصة أن بناته الأخريات قد حصلن على بائنات ممتازة . وقد أدى ذلك إلى وجود علاقات غير طيبة بين شارل وزوجة أخيه لويس وبينه وبين والدة

زوجته(١١) . والمهم هنا أن شارل حاز إقطاعية أنجو ومين عن طريق أسرته ، ومقاطعة بروفانس بزواجه من بياترس عام ١٢٤٦م .

ولم ينل شارل حقه فى مقاطعتى أنجو ومين حتى زواجه ، لذلك اتجه بعد زواجه فى بدايات عام ١٢٤٦م ، إلى مقاطعة بروفانس واصطحب معه عددا كبيرا من رجال البلاط الفرنسى ورجال القانون . أدى هذا إلى سخط أهالى بروفانس عليه ، ومن ذلك قيام بعض النبلاء ومنهم بارال أف ليبو Barral of Les Baux وبونيفاس أف كاستلان Boniface of Castellane بتكوين جبهه معارضة ضد حكم شارل . وعندما ذهب شارل إلى الشمال فى العام التالى (١٢٤٧م) ليتقلد منصب كونت أنجو ومين ، كونت ثلاث مدن من الشريط الحدودى مع إيطاليا حلفا ضد شارل ، وقد تولى بارال أمر هذه الحلف (١٢) .

وكان شارل كونت أنجو قد وعد بمشاركة أخيه لويس التاسع فى حملته على مصر ، ولذا لم يكن لديه الوقت الكافى لمواجهة هذه المعارضة . وكل ما فعله فى تلك المرحلة هو عقد تسوية مع والدة زوجته فتنازل عن أراضى إقليم فولكالكير Forcalquier ، وثلث دخل مقاطعة بروفانس ، وأطمأن شارل إلى هذه التسوية وأبحر مع أخيه من ميناء ايجوس - مورت - Aigues Mortes فى عام ١٢٤٨م(١٣) ، الواقع فى مقاطعة بروفانس التى يحكمها شارل .

وكان أن ثارت الفتنة فى المقاطعة بعد رحيله ، ولكن شارل اعتبر نفسه فى مهمة مقدسة وهى القتال فى صفوف الحملة الصليبية ، وبذلك تكون أراضيه تحت حماية البابوية . وقد سمح له أخوه لويس بالعودة من فلسطين التى أبحر إليها لويس بعد هزيمته وفشل الحملة فى مصر ، فعاد شارل ومعه أخوه الفونسو ليرعيا شئون الدولة فى غيابه بناء على طلب الملكة الأم . ولما عاد شارل إلى فرنسا بدأ فى منازلة معارضيه وانتصر عليهم الواحد بعد الآخر(١٤) .

وطبقًا للنظرية البابوية فقد كانت صقلية تعتبر إقطاعا بابويًا ، فالبابوية هى التى منحت النورمان جنوب إيطاليا وصقلية فى القرن الحادى عشر ، وقد ورث

عرش صقلية الإمبراطور الألمانى فريدريك الثانى Frederic II (١٢١٢ - ١٢٥٠م) عن طريق والدته كونستانس Constance ، وعندما أصدر البابا انوسنت الرابع Innocent IV (١٢٤٣ - ١٢٥٤م) قرار الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور وشبهه بفرعون فى المؤتمر الكنسى الذى عقد فى مدينة ليون Lyons فى مايو ١٢٤٥م ، اعتبرت البابوية نفسها مسئولة عن عرش صقلية(١٥) .

واستمر العداء بين البابوية وأسرة الهوهنشتاوفن ، ولم تعترف بملوك الأسرة الذين حكموا صقلية وجنوب إيطاليا ، وفى عام ١٢٦١م أصبح الفرنسى جيمس بانتاليون James Pantaleo بطريق بيت المقدس الرسمى (١٢٥٥ - ١٢٦١م) ، البابا تحت اسم أوربان الرابع Urban IV (١٢٦١ - ١٢٦٤م)(١٦) . وقد نجح أوربان فى إقناع لويس التاسع بأن نجاح أى حملة صليبية يتوقف على القضاء على أسرة الهوهنشتاوفن . ورشح البابا شارل كونت أنجو ليتولى عرش صقلية وجنوب إيطاليا ، واعتبرت البابوية أن الحرب ضد أسرة الهوهنشتاوفن حربًا صليبية(١٧) .

وافق الملك لويس على فكرة البابا وترشيح شارل ، وتبنى البابا كلمنت الرابع Clement IV (١٢٥٦ - ١٢٦٨م) ، وهو فرنسى الأصل أيضًا فكرة سلفه ووافق على قيام شارل بغزو جنوب إيطاليا فى العام الأول من توليه عرش البابوية ، وقدم الملك لويس وكل بارونات فرنسا الدعم العسكرى والمالى لجيش شارل الذى أبحر من مدينة مرسليا Marseilles على متن ثلاثين سفينة كبيرة إلى مدينة روما فوصلها فى مايو ١٢٦٥م حيث قابل البابا الذى منحه لقب ملك صقلية وأبوليا ، وقدم له الدعم المادى والروحى(١٨) .

وكان أن تقدم شارل بقواته جنوبًا استعدادًا لدخول جنوب إيطاليا ، والتقى بقواته مع قوات الحاكم الألمانى مانفرد Manfred التى كانت تضم فى صفوفها بعض العناصر الإسلامية . وكان اللقاء فى معركة بنفنتو Benevento التى انتهت فى الثامن عشر من فبراير عام ١٢٦٦م ، بانتصار شارل على مانفرد . وبذلك أصبح شارل ملكًا واقعيًا على صقلية وأبوليا(١٩) .

ويبدو واضحًا أنه كان من أهداف ملوك صقلية أن يضموا أو يؤسسوا لهم إمارات فى الجانب الشرقى من حوض البحر المتوسط ، إذ حاول روبرت جويسكارد Robert Guiscard أن يغزو بعض الأراضى البيزنطية(٢٠) . كما ساندت أسرته الحملة الصليبية الأولى ، وتمكن بوهمند Bohemond من إقامة إمارة انطاكية وحكمها (١٠٩٨ - ١١١١م)(٢١) . أما روجر الثانى Roger II (١١٢٩ - ١١٥٤م) ، فقد كان يأمل فى السيطرة على جانب من أراضى الامبراطورية البيزنطية ، وقام فى خريف عام ١١٤٧م بغزو جزيرة كورفو Corfu(٢٢) . كما قام هنرى السادس Henry VI الإمبراطور الألمانى (١١٩٠ - ١١٩٧م) وحاكم صقلية أيضًا - عن طريق زوجته كرنستانس Constance - بوضع الخطط ليمد سلطانه على الأمارات الصليبية فى بلاد الشام ، والإمبراطورية البيزنطية وغيرها من الأقاليم الشرقية وأرسل الحملة الصليبية الألمانية عام ١١٩٧م إلى بلاد الشام(٢٣) .

وفيما يتعلق بابنه الإمبراطور فريدريك الثانى : فإنه لم يحاول أن يتطلع إلى أراضى الإمبراطورية البيزنطية ، ولكنه كان ملكًا على صقلية ومملكة بيت المقدس الأسمية . أما ابنه مانفرد ملك صقلية (١٢٥٨ - ١٢٦٦م) فقد تزوج فى عام ١٢٥٠ م من هيلينا Helena ابنة مخائيل الثانى حاكم إمارة إيبروس Epirus (١٢٢٧ - ١٢٧١م) بعد تمزق الامبراطورية البيزنطية فى عام ١٢٠٤م(٢٤) .

والحقيقة أن المسألة كلها كانت تسير فى فلك الحروب الصليبية ، فالحملة الصليبية الرابعة التى اجتاحت القسطنطينية واستولت عليها عام ١٢٠٤م أغضبت البابوية ، ولكن بقيام الامبراطورية اللاتينية (١٢٠٤ - ١٢٦١م) على أنقاض الامبراطورية البيزنطية ، فقد البيزنطيين تعاطف أوربا معهم بسبب رفض البيزنطيين الشديد لتقبلهم السيادة اللاتينية الجديدة والمذهب الكاثوليكى . وساد الاعتقاد فى أوربا فى تلك المرحلة وما بعدها أن أى حرب ضد الإمبراطورية البيزنطية تعتبر حربًا صليبية .

وكان للملك لويس التاسع عندئذ رؤية خاصة تتمثل فى أن أى حملة صليبية يجب أن يكون هدفها الأول السيطرة على الأراضى المقدسة فى بلاد الشام وانتزاعها من أيد المسلمين ، ورغم هذا فإنه كان يرى أن تقوية الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية وكبح جماح المنشقين البيزنطيين سوف يخدم القضية الصليبية ، واعتنق ذات الفكرة المفكرون الأوروبيون من بعده(٢٥) .

لقد كان فى عودة الإمبراطورية البيزنطية عام ١٢٦١م وإنهيار الإمبراطورية اللاتينية تقوية لهذا الشعور داخل أوربا ، والواقع أن الإمبراطور الألمانى مانفرد كان عدوا للإمبراطورية البيزنطية فى المنفى ، لذلك قدم الدعم للامبراطورية اللاتينية . وكان يأمل من وراء ذلك أن يظهر للعالم المسيحى الأوربى أنه صليبى متحمس ، ويكسب رضا البابوية كذلك فكر مانفرد لبعض الوقت أن يتقرب من البابوية . ولكن ذلك كان بعيدًا عن أفكار البابوية لأنه فى تلك المرحلة كانت قوات شارل كونت أنجو فى طريقها إلى جنوب إيطاليا بدعم من البابا ، وهنا أقلع مانفرد عن مصالحة البابا وعن مساندة الإمبراطورية اللاتينية فى المنفى واستدار لمواجهة مرشح البابا لعرش جنوب إيطاليا وصقلية . ولكن مانفرد هزم وقتل فى معركة بنفنتو وأصبحت هيلينا زوجته أسيرة لدى شارل كونت أنجو(٢٦) .

وبعد هذه الأحداث اعتبر شارل نفسه وريثًا للأمبراطور مانفرد وزوجته فى الأراضى البيزنطية . وبدأ فى إرسال حملة للاستيلاء على الأراضى التى قدمت كبائنة للملكة هيلينا وهى جزيرة كورفو والمدن الواقعة قبالها وهى بوترينتو Butrinto ، وأفلونا Avlona ، وسوبوتو Suboto ، وكان مانفرد قد عهد بحكم هذه الأراضى لأمير البحر فيليب شيناردو Philip Chinardo . وعندما علم فيليب بمصرع مانفرد فى بنفنتو حكم هذه الأراضى لصالحه . وقد حاول ميخائيل الثانى والد هيلينا وحاكم إيبروس استرداد هذه الأراضى ولكنه لم يوفق . ولكى ينقذ ماء وجهه أعلن أنه سوف يقدم هذه الأراضى كبائنه إلى فيليب إذا تزوج من أخت زوجته ، وتم الاتفاق على ذلك(٢٧) .

لم يمنع هذا الاتفاق ميخائيل الثانى من تدبير المكائد ضد فيليب وخطط لاغتياله ، وكان ذلك من حسن حظ شارل فعندما وصلت قوات شارل كونت أنجو إلى السواحل البيزنطية لم تجد مقاومة تذكر ، فاستولت على هذه الأراضى ، وأدعى شارل أن ملكيته لهذه الأراضى هى ملكية شرعية ، وأن هيلينا أرملة مانفرد هى أسيرته ، وأن بائنتها آلت إليه (٢٨) .

ثم قام شارل بتعيين أحد أعضاء فيليب ويدعى جازو Gazo حاكما على تلك الأراضى ، ولكن طموح شارل لم يتوقف عند هذه المرحلة ، بل تطلع إلى القسطنطينية نفسها ، أما الإمبراطور اللاتينى بلدوين الثانى Baldwin II (١٢٢٨ - ١٢٦١م) الذى كان يعيش فى المنفى داخل أوربا ، فإنه فقد أمله فى البلاط الفرنسى بعدما علم بخطط شارل والبابوية فى صقلية وجنوب إيطاليا ، ولم يعد لديه الوقت لمناصرته وإمداده بالرجال أو السلاح أو المال(٢٩) .

وكان أن إتجه بلدوين من فرنسا إلى إيطاليا ، وتقابل مع البابا كلمنت الرابع فى مدينة فيتربو Viterbo فى الرابع والعشرين من مايو عام ١٢٦٧م ، وقد خطط البابا للتوفيق بين بلدوين وشارل . وكان على بلدوين أن يدفع الكثير مقابل مساندة ومساعدة شارل عسكريا له . وكان من طلبات شارل أن يؤكد له بلدوين ملكية بائنه الملكة هيلينا ، وأن يتخلى بلدوين عن سيادة إمارة أخيا Achaea ، وأن يكون للملك شارل حق السيادة على جزء من بحر إيجه عدا الجزر التى تسيطر عليها البندقية ، وجزر لسبوس Lesbos ، وخيوس Chios ، وساموس Samos ، وأمورجوس Amorgos التى سمح لبلدوين الاحتفاظ بها إذا استعادها . وأن يقدم بلدوين ثلث دخل أى مقاطعة يتم استعادتها بما فيها القسطنطينية . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان على فيليب بن بلدوين أن يتزوج من بياترس Beatrice ابنة شارل كونت انجو بشرط أنه فى حالة موت فيليب دون عقب له ، فإن حقوقه فى الإمبراطورية تؤول إلى شارل نفسه ، وتم الاتفاق على ذلك(٣٠) .

وكان شارل على اتصال بوليم الثانى فلهاردوين William II of Villehardouin (١٢٤٦ - ١٢٧٨م) وذهب السفراء من كل جانب إلى

الجانب الآخر فى فبراير ١٢٦٧م . وقد رحب وليم بهذه الصداقة الجديدة التى جعلته يستند إلى حاكم قوى نشيط مثل شارل لكى يقوى بهذه الرابطة موقفه فى إمارته بعد استعادة آل باليولوج Palaeologus عرش بيزنطة فى القسطنطينية عام ١٢٦١م .

ورغم أن وليم كان زوجا لاخت الملكة هيلينا أرملة مانفرد إلا أن ذلك لم يكن له أثر فى الوضع الجديد . ولعل ذلك مرجعه إلى أن وليم كانت له بنتان وليس له ولد ، أكبرهما هى إيزابيلا وريثته ، وقد رشحت للزواج من أندرونيق Andronicus ابن الامبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن . وقد طلب شارل زواج ابنه فيليب من إيزابيلا وغض النظر عن الترشيح الأول . واشترط شارل أنه فى حال وفاة وليم دون ولد تؤول أراضيه إليه كما فعل مع بلدوين ، وقد تم الزواج على هذا الأساس فى السابع عشر من يونيه عام ١٢٧٠م ، ولكن وليم وضع بعد ذلك وصية سرية تقتضى بأن تؤول أراضيه إلى ابنته الأخرى وهى الصغرى مارجريت(٣٢) .

وبعد أن اطمأن شارل إلى وليم بدأ شارل فى إرسال قواته إلى أخيا ليؤكد سيطرته عليها ، وقد رحب وليم بذلك لانزعاجه من استعادة بيزنطة لعرش الامبراطورية ، وذهب وليم إلى أبعد من ذلك ورحب بأى حملة عسكرية توجه إلى القسطنطينية نفسها(٣٣) .

وكان شارل كونت أنجو قد ذهب بدوره إلى أبعد من ذلك لتطويق الامبراطورية البيزنطية ، ويرى البعض أنه فى عام ١٢٦٧م أرسل سفارة إلى الخان المغولى فى فارس أبغا Abaga (١٢٦٥ - ١٢٨٢م)(٣٤) . ولعل هذه السفارة كانت ضمن وفد السفارة التى أرسلها البابا كلمنت الرابع إلى خان فارس . فقد كان شارل يخشى من قيام تحالف بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى ، ولكن هذه السفارة فشلت فى مهمتها لعدة أسباب ؛ منها أن أبغا لم يكن متعاطفًا مع الغرب الأوربى ، إلى جانب زواجه من أميرة بيزنطية هى ماريا باليولوج التى عرفت عند المغول باسم دسبينا خاتون Despina Khatun . يضاف إلى ذلك انصراف ابغا إلى القتال الذى دار بينه وبين القبيلة الذهبية فى روسيا(٣٥) .

وبعد فشل هذه المهمة بدأ شارل كونت أنجو فى البحث عن حليف آخر فى أوربا ، وقد وجد ضالته فى مملكة هنغاريا التى كانت حدودها تمتد من مدينة فيينا إلى شبه جزيرة البلقان . وكان ملكها العجوز بيلا الرابع Bella IV (١٢٣٥ - ١٢٧٠م) قد غزا بلاد الصرب وبلغاريا عدة مرات بمساعدة زوج ابنته ملك البوسنة . وكان بيلا قد وعد بقيادة حملة صليبية ضد الامبراطورية البيزنطية . وبدأ الاتصال بين شارل وبيلا عندما ماتت زوجة الأول بياترس عام ١٢٦٨م ، وقد طلب شارل من الملك بيلا أن يتزوج ابنته مارجريت ولكن مارجريت كانت قد وهبت نفسها للرهبنة . وقد احترمت الأطراف المعنية رغبتها ، وهناك من يقول أنها دخلت سلك الرهبانية للتهرب من هذا الزواج(٣٦) .

واقترح شارل اقتراحًا آخر وهو أن بيلا كان له ولد هوستيفن Stephen الذى خلف والده فى حكم هنغاريا (١٢٧٠ - ١٢٧٢م) تحت اسم ستيفن الخامس ، وكان للأخير ولد هو لاديسلاس Ladislas وابنة هى ماريا ، وطرح شارل زواج ابنه شارل الثانى أمير سالرنو Salerno من ماريا ، وأن تتزوج ايزابيلا ابنة شارل من لاديسلاس(٣٧) . وقد تم هذا الزواج الذى أدخل أسرة شارل كونت أنجو فى العرش المجرى(٣٨) . وعلى أثر ذلك استعد شارل لغزو القسطنطينية. ولكن تنفيذ خطط شارل توقف لبعض الوقت عندما تدخل كونرادين Conradin ابن كونراد فى إيطاليا بعد مصرع عمه مانفرد ، لمقاتلة شارل . وقد استعد شارل للمعركة القادمة وسانده صهره وليم حاكم أخيا وأرسل إليه حوالى أربعمائة فارس لمساندته ضد كونرادين . وانتهى الأمر بهزيمة كونرادين فى عام ١٢٦٨م ، وتم القبض على كونرادين وعدد من رجاله ، وتم إعدامه وكبار مرافقيه فى الميدان العام بمدينة نابلى . وكان كونرادين يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا ، وبموت كونرادين انتهى فرع آل الهوهنشتاوفن فى حكم ألمانيا ، وحققت البابوية هدفها فى القضاء على عائلة فريدريك الثانى .

وكانت هذه الحرب كلها قد دارت على أساس أن كونرادين ورجاله من أعداء الكنيسة ، ولذلك دفن كونرادين ومن معه تحت رمال سوق المدينة دفنة غير

شرعية باعتبارهم خارجين عن رحمة الكنيسة . وقد غضبت البابوية من تنفيذ حكم الإعدام فى كونرادين ورفاقه ، وكان البابا يرى أن من الأفضل معاقبتهم بالسجن لا الإعدام(٣٩) .

وبعد هذه الأحداث بدأ شارل يستعد لغزو القسطنطينية وحدد صيف عام ١٢٧٠م موعدًا لذلك . وقد استعدت السفن فى البحر الادرياتيكى ، وتم الترتيب مع وليم أمير آخيا للتعاون والتنسيق فى العمليات العسكرية ، والواضح أن أخبار الحملة قد تسربت إلى مسامع الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن ، فاستعد بالأسطول البيزنطى رغم صغر عدده ، وحمله بالعتاد ، ولم يكن للإمبراطور حليف فى أوربا غير جنوة التى كانت واقعة تحت سيطرة الجولفيين أعداء آل الهوهنشتاوفن ، وحتى هؤلاء الحلفاء كانت تربطهم علاقات طيبة مع شارل كونت أنجو(٤٠) .

وفى هذه المرحلة ظهرت رغبة لويس التاسع ملك فرنسا فى القيام بحملة صليبية لمقاتلة المسلمين ، وكان يرى أن يتم ذلك بأسرع وقت ممكن لأن صحته فى تدهور مستمر ، فلقد كانت هزيمته فى حملته على مصر لا تبارح خياله ، واعتمد على مساندة أخيه شارل . وكان على شارل أن لا يتخلى عن مساندة أخيه ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يريد أن يتخلى عن مشاريعه فى شرق البحر المتوسط(٤١) .

ويرى البعض أنه إذا كان على شارل اللحاق بحملة صليبية ، فيجب أن تكون ضد المسلمين الذين يهددون مملكته . فعلى الشاطىء المقابل لجزيرة صقلية توجد مدينة تونس حيث يحكم الأمير أبو عبد الله محمد المستنصر با لله الحفصى (٦٤٧ - ٦٧٥هـ / ١٢٤٩ - ١٢٧٧م)(٤٢) . وكانت العلاقات سيئة بين المستنصر وشارل ، ومرجع ذلك إلىأن تونس كان عليها أن تدفع جزية سنوية لحاكم صقلية منذ أيام روجرالثانى (١١١٣ - ١١٢٩م) ، ولكن المستنصر توقف عن دفع هذه الجزية ، وكان شارل يأمل فى أن يدفع المستنصر هذه الجزية

التى توقفت منذ سبعة عشر عامًا(٤٣) . يضاف إلى ذلك أنه كان للملك الفونسو العاشر Alfonso ملك قشتاله (١٢٥٢ - ١٢٨٤م) أخان ، هما فريدريك وهنرى ، وكانا على خلاف مع الفونسو لعدم رغبته فى إشراك أحدهما فى عرش الدولة . لذلك غادرا قشتاله بحثًا عن حياة المغامرة ، ودخل فريدريك فى خدمة أمير تونس . ثم عبر إلى إيطاليا ليلحق بالملك مانفرد وكان معه فى معركة بنفنتو ، كذلك اشتركت فى هذه المعركة بعض القوات الإسلامية . وبعد هزيمة مانفرد هرب فريدريك وعاد إلى تونس ومعه رجاله حيث دخل تحت رعاية المستنصر . وفى العام التالى أى فى عام ١٢٦٧م كانت جزيرة صقلية فى حالة ثورة ضد حكم شارل وذلك بدعم من بعض العناصر التى وصلت إليها من تونس(٤٤) .

والواقع أن المستنصر كان مسلمًا متسامحًا ، عاش فى بلاطه وفى بلاده الكثير من المسيحيين ، كما تردد على بلاده الكثير من التجار الذين سمح لهم بمزاولة عملهم بكل حرية بل أنه سمح بإقامة أحد الأديرة فى العاصمة تونس . ولعل ذلك مما دفع البعض ومنهم شارل للتفكير فى أن المستنصر ينوى التحول إلى الديانة المسيحية ، إلا أنه يخشى معارضة رجال الدين والأئمة فى بلاده ، واعتقد شارل فى أن يصبح المستنصر حليفًا له وأن يتحكم فى المضيق البحرى الذى يقع بين صقلية وتونس ، وكان يأمل من وراء ذلك كله أن يجنى بعض الأموال التى تساعده فى حملته المقبلة على بيزنطة(٤٥) .

وعن الجانب الصليبى فقد اعتقد الصليبيون وعلى رأسهم لويس وشارل أن نجاح الحملة على تونس يؤدى إلى الاستيلاء على مصر بسهولة وأن بالإمكان فصل مملكة سبته - والمقصود بها المغرب - ، وكذلك مملكة غرناطة - والمقصود بها الأندلس - عن المشرق الإسلامى(٤٦) ، واعتنق لويس هذه الأفكار وتجدد عنده الأمل فى السيطرة على مصر والشام بعد تونس . ولكن بعض مستشارى الملك لم يوافقوا على القيام بأى حملة سواء إلى تونس أو إلى المشرق لاعتلال صحة الملك، وإن كان البعض منهم يرى أن تكون وجهة الحملة إلى الشام حيث الأمارات

الصليبية التى يمكنها تقديم المساعدات العسكرية للحملة . وعندما أصر لويس على توجيه الحملة إلى تونس رفض بعض المقربين إليه الذهاب معه ومـن هـؤلاء المـؤرخ جوانفيل(٤٧) .

وفى نهاية الأمر غادرت القوات الفرنسية بقيادة الملك لويس ميناء إيجوس - مورت ومعه بعض أفراد عائلته ، منهم ابنه الأكـبر فيليـب ، وزوجتـه إيزابيـلا أف أراجون ، وولديه يوحنا ولويس وملك نافارو تيبـالد الثـانى Tibald II زوج ابنتـه إيزابيلا وعدد كبير من النبلاء . وقد سـاهم أسـطول جنـوه فـى نقـل معظـم هـذه القوات(٤٩) .

ونظرًا للمخاطر والصعاب التى أحـاطت بهـذه الحملـة ، فقـد كـان شـارل يخشى قيام الملك لويس بإلغاء الحملة من أساسـها سـواء إلى تونـس أو إلى الشـام ، لأن شارل كان يعلم أن الكثير من مستشارى الملك كانوا ضد فكرة الحملـة علـى تونس، ولم يتخل شارل عن مشـروع مهاجمـة القسـطنطينية إلا بعـد مـا تـأكد أن الملك لويس قد أبحر إلى تونس فعلاً . وفى تلك المرحلة أمر شارل سفنه بالاتجاه إلى تونس بدلاً من القسطنطينية ، وتجمعت السفن عند صقليـة بـدلا مـن تجمعهـا فـى البحر الادرياتيكى . وترك شارل مدينة نابلى فى الثامن من يوليـو عـام ١٢٧٠م ، واتجه إلى مدينة بالرمو Palermo فى صقلية فوصلها فـى الثـالث عشـر مـن الشـهر نفسه وظل فى انتظار الأسـطول . وفـى العشـرين مـن أغسـطس كـان فـى مدينـة ترابانى Trapani التى تقع فى الطرف الغربى لجزيرة صقلية . وفى مساء يوم الرابع والعشرين من أغسطس أبحر على رأس أسطوله ورسا فـى اليـوم التـالى فـى تونـس ليتلقى خبر وفاة الملك لويس فى صباح ذلك اليوم(٥٠) .

وكان الجيش الفرنسى قد وصل إلى تونس فى السابع عشر مـن يوليـو عـام ١٢٧٠م ورسا عند سواحل المدينة دون مقاومة تذكر . ويتضح مـن النصـوص أن الأمير المستنصر لم يعلن عن تحوله إلى الديانة المسيحية ، بل على العكس مـن ذلـك فكان قد أمر بتحصين المدينة وأعـد تراتـه للدفـاع عنهـا ، وكـان لويـس قـد أقـام

معسكره فى أطلال مدينة قرطاج . ويرى البعض أن المستنصر لم يبادر بشن الهجوم على القوات الفرنسية ، بل انتظر حتى وصول بقية القوات ومنها قوات شارل وقوات الأمير الأنجليزى إدوارد Edward(٥١) . ويستدل من ذلك أن المستنصر كان على علم بكافة التحركات العسكرية للحملة . ولعل مصدر هذه المعلومات العناصر الثائرة التى كانت تقيم فى تونس، أو من التجار الأجانب أيضًا.

وخلال فترة الانتظار هذه دارت بعض المناوشات بين الصليبيين والتونسيين فى جو شهر يوليو الحار فى أراضى تونس المترية . ولعدم معرفة القوات الصليبية بالأراضى التونسية ومناخها فقد تأثرت بهذه الأوضاع وتفشى فيها مرض الطاعون، كما مرض الملك لويس وابنه فيليب . وتولى القيادة يوحنا بن لويس الذى ولد فى مدينة دمياط أثناء أحداث الحملة السابعة ، وكان يبلغ من العمر عشرين عامًا وظل يعمل تحت أمره المندوب البابوى منذ مرض والده لويس حتى وفاته فى الخامس والعشرين من يوليو عام ١٢٧٠م(٥٢) .

وهكذا كان فى وصول الملك شارل وقواته نجدة للجيش الفرنسى ، خاصة أن قواته كانت غير مرهقة وتمكنت من التعامل عسكريا مع القوات الإسلامية التى تزايدت أعدادها وتمركزت على التلال المحيطة بأرض المعارك . وفى الوقت المناسب قام شارل بالهجوم على مدينة تونس حيث دارت بعض الاشتباكات والمناوشات فى معركتين صغيرتين كما دارت بعض الاشتباكات فى البحر أيضًا . ثم وصلت قوات الأمير الإنجليزى إدوارد . ولكن المعارك العسكرية لم تستمر طويلا ، فقد وجدت الأطراف المتصارعة أن السلام أفضل من القتال(٥٣) .

وفى نهاية شهر أكتوبر بدأ وضع شروط السلام بين الطرفين وتم توقيعها فى مطلع شهر نوفمبر . وقد وقع المعاهدة الأمير المستنصر ، ومن الجانب الصليبى الملك شارل كونت أنجو وابن أخيه الأمير يوحنا . وبموجب هذه المعاهدة وافق المستنصر على دفع تكاليف الحملة ، وأن يتم إطلاق سراح الأسرى الصليبيين ، وأن يسمح ببناء الكنائس والأديرة فى تونس وأن يسمح بالتبشير بالديانة المسيحية

أيضًا ، وأن يدفع المستنصر جزية سنوية قدرها عشرين ألـف بسـتول Pistoles مـن الذهب سنويًا وبعض الشروط الأخرى(٥٤) . ويرى البعض أن مدة الهدنـة كـانت عشر سنوات ، وقد تم تجديدها بعد ذلك لمدة أخرى(٥٥) .

لقد فعل شارل كونت أنجو كل ما فى وسـعه لدعـم هـذه الحملـة وليكـون بعيدًا عن الشبهات ، لقد ظن الصليبيون أن بوسعهم الاستيلاء على تونس . ولكن شارل كان يرى أن نصيبه من الغنائم سوف يكـون قليـلاً لأن الأطـراف المشـاركة فـى الحملـة كثـيرة ، فهنـاك أخـوه لويـس التاسـع ، وتيبـالد ملـك نافـارو والأمـير الإنجليزى إدوارد ، والبابوية ، والجنويه ، وعـدد آخـر مـن النبـلاء . لذلـك فضـل شـارل التفـاوض مـن أجـل السـلام الـذى حصـل بموجبـه علـى العديـد مـن الامتيازات(٥٦) .

والواقع أن الأمـير إدوارد عندمـا وصـل بقواتـه إلى تونـس فـى مطلـع شـهر نوفمبر أصيب بخيبـة الأمـل عندمـا علـم أن الحـرب قـد انتهـت ، ولكنـه أبحـر إلى الساحل الشامى حيث نزل فى ميناء عكا ليبدأ مغامرة جديدة مع المغول فى محاولة لاستعادة الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين(٥٧) .

ورغم المزايا التى حصل عليها شـارل فـإن سوء الحـظ لازم الحملـة ، فقـد ظلت بعض القوات طريحة المرض فى المعسكرات عنـد مدينـة تونـس ، وقـد مـات منها الكثير . كما مرض تيبالد ملك نافارو ثم ما لبـث أن مـات عندمـا وصـل إلى مدينة تراباتى فى صقلية . وعندما أبحر الأسطول الصليبى من تونس ضربته عاصفـة عند الساحل الغربى لجزيرة صقلية ، واصطدمت السفن ببعضهـا ، وتحطـم العديـد منها . كما هلك الكثير من الصليبيين من جراء ذلك(٥٨) . وكـان الأمـر يتطلـب عدة أشهر لترميم هذه السفن وإعدادها لحملة مقبلة ضد القسطنطينية .

لقد خسر شارل الكثير بفشل الحملة وأحداث العاصفة وبموت أخيه لويس، وعندما تولى ابنه فيليب عرش فرنسا وقع تحت تأثير والدته التى لم تتعاطف مع عمه شارل ، فعزف فيليب عن مساعدة عمه ، وبذلك فقـد شـارل كـل مسـاعدة مـن البلاط الفرنسى(٥٩) .

وفيما يتعلق بعلاقة شارل كونت أنجو ببيت المقدس ، فإن الأحداث ترجع إلى عام ١٢٦٠م قبل معركة عين جالوت ، وذلك عندما قدم القائد المغولى هولاكو إلى ضواحى أنطاكية ، ثم قدم هيثوم الأول Hethoum I ملك أرمينيا (١٢٢٦ - ١٢٦٩م) ، وصهره بوهمند السادس Bohemond VI أمير انطاكية (١٢٥١ - ١٢٦٨م) لزيارة هولاكو فى معسكره ، وقد كافأهم على ما قدموه من مساعدة للجيش المغولى(٦٠) .

ويهمنا فى هذا البحث الأمير بوهمند الذى قدم له هولاكو بعض المدن والحصون التى كانت فى حوزة المسلمين وذلك مقابل موافقة بوهمند على تعيين البطريك الارثوذكسى يوثيموس Euthymius بدلاً من البطريق الكاثوليكى أوبيزو Opizo (١٢٤٧ - ١٢٩٢م) (٦١) . ويرجع ذلك إلى العلاقات الودية التى ربطت هولاكو بالامبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن باليولوج فى منفاه فى مدينة نيقيه .

واعتبر الصليبيون أن فى ذلك إهانة للكنيسة الكاثوليكية بأسرها ، يضاف إلى ذلك ما كان من التوتر الزائد الذى ساد الأمارات الصليبية كلها نظرًا لزيادة نفوذ البنادقة فى مملكة بيت المقدس الإسمية ، ونمو تجارتهم مع المسلمين فى مصر والشام ، هذا فضلا عن الصراع الذى ساد منطقة شرق البحر المتوسط بين البندقية وجنوة التى ارتبطت بالإمبراطورية البيزنطية بعد عودتها فى عام ١٢٦١م ، وقيام الإمبراطور بمنح العديد من المزايا التجارية التى قدمتها لهم الإمبراطورية فى موانى البحر الأسود وبحر إيجه(٦٢) .

وفى تلك المرحلة كان يتولى أمر مملكة بيت المقدس الأسمية هيو الثانى Hugh II ملك قبرس (١٢٥٣ - ١٢٦٧م) ، باعتباره يلى فى الوارثة كونرادين المتغيب عن البلاد. وكان هيو هذا طفلاً صغيرًا يبلغ من العمر حوالى سبع سنوات. ولم يكن بوسعه أن يفعل شيئًا إزاء هذه الأحداث لذلك تطلع نبلاء مملكة بيت المقدس إلى شخصية قوية تتولى حماية المملكة والدفاع عنها وتسيير أمورها لمصلحة

القضية الصليبية . وتطلع النبلاء إلى فرنسا كعادتهم حيث وقع اختيارهم على شارل كونت أنجو ، وأرسلوا إليه فى العاشر من مايو ١٢٦٠م ، أى بعد سقوط بغداد وقبل معركة عين جالوت يوضحون له ما دار فى المنطقة من أحداث ، وسيطرة المغول على مدن شمال الشام ، وغير ذلك من الوقائع(٦٣) . وواقع الحال أن شارل كان يخطط للسيطرة على جانب من بعض الأراضى البيزنطية وصقلية وجنوب إيطاليا ، فلم يهتم بطلبات النبلاء الصليبيين .

وفى أواخر عام ١٢٦٧م مات هيو الثانى فخلفه على عرش قبرس هيو الثالث (١٢٦٨ - ١٢٨٤م) ، وأصبح ملكًا أيضًا على مملكة بيت المقدس الأسمية(٦٤) . وفى العام التالى (١٢٦٨م) هزم شارل كونرادين وأعدمه فى العام نفسه . وكونرادين هذا هو ابن كونراد بن فريدريك الثانى الذى كان قد تزوج من يولاند برين Yolande Brienne وريثة عرش مملكة بيت المقدس عن طريق أمها ماريا . وبذلك أصبح فريدريك الثانى ملكًا على مملكة بيت المقدس الأسمية (١٢٢٥ - ١٢٢٨م) ومن بعده ابنه كونراد كملك اسمى (١٢٢٨ - ١٢٥٤م)، ومن بعده ابنه كونرادين صاحب الحق الشرعى فى عرش المملكة . ومع إعدام كونرادين اختلف نبلاء المملكة حول الوريث الشرعى للمملكة . وانحصر الأمر فى أليس أف شامبانى Alice of Champagne ، وهيو الثالث ملك قبرس ، وهيو برين، ورابعة تدعى ماريا(٦٥) .

وتدخل البابا فى الأمر ، واعترض نبلاء مملكة بيت المقدس واعتبروا أن المحكمة العليا فى المملكة هى صاحبة الحق فى حل هذه القضية ، وظل الأمر حتى قيام البابا جريجورى العاشر Gregory X (١٢٧١ - ١٢٧٦م) قبل وفاته باقناع ماريا ببيع حقها فى وراثة العرش إلى شارل كونت أنجو ، وتم التنازل فى مارس

عـام ١٢٧٧م فـى عهـد البابـا يوحنـا الحـادى والعشـرين John XXI (١٢٦٧ - ١٢٧٧م)(٦٦) .

ورغـم أن هذا التنازل لا يعنى سوى أن شـارل حـل محـل ماريـا ، مـع بقـاء أصل النزاع على العرش كما هو بين الأطراف الأربعة المدعين بحق الوراثة ، إلا أن شارل قام بعد هذا التنازل بحمل لقب ملك مملكـة بيـت المقـدس الأسميـة ، وتضـع المراجع المتخصصـة إلى جـوار اسمـه وسـنى حكمـه (١٢٧٧ - ١٢٨٥م) كلمـة مغتصب . والمهم هنا أن شارل بادر على الفور بأن أرسـل ممثـلاً لـه - هـو روجـر أف سان سفرينو Roger of San Severine - ومعه بعـض القـوات إلى مدينـة عكـا . وقد ساند روجر جماعة فرسان الداويـة وعلـى رأسـهم مقدمهـم وليـم أف بوجيـه William of Beaujeu (١٢٧٣ - ١٢٩١م) والبنادقة . وقد رسا روجـر فـى ميناء عكا وقدم الوثائق الخاصة بأحقية شـارل فـى المملكـة موقعـة مـن البابـا . ولم يـرد باليان ابلين حاكم مدينة أرسوف ونائب الملك القبرصى هيو الثالث حتى لا يدخل فى صدام عسكرى فسلم بالأمر الواقع(٦٧) .

وبعد أن استقر الحال إلى حد ما بقبول روجر ممثـلاً للملـك شـارل كونـت أنجو، طلب روجر من حكومة عكا ومن نبلاء مملكة بيت المقـدس أن يقدمـوا يمـين الولاء والطاعة للملك شارل . ولكنهم ترددوا فى بداية الأمر وطلبوا مهلة ليرسلوا إلى الملك هيو الثالث فى قبرص يطلبون منه أن يحلهم من يمين الولاء الذى سـبق أن قدموه له عند تعيينه ملكًا على المملكة ، وقد وافق روجـر علـى ذلـك ولكـن هيـو الثالث رفض مقابلة السفارة ، وهنا هدد روجر بمعاقبتهم ومصادرة أراضيهم إذا لم ينفذوا طلبه ويقدموا الولاء للملك شارل . والواضح أن حكومة مملكة بيت المقدس الأسمية لم يكن لديها من القوات العسكرية ما يمكنها من مواجهة روجر والداويـة والبنادقـة فاستسلموا وسلموا بـالأمر الواقـع . وانتهـى الحـال بخضـوع نبـلاء حكومـة عكـا

للملك الجديد شـارل . كما اعترف بوهمنـد السابع أمير طرابلـس.(١٢٧٥ - ١٢٨٧م) أيضًا بشارل ملكًا علـى مملكة بيـت المقـدس وأن روجـر نائبًـا لـه فـى المملكة(٦٨). أما انطاكية فكانت قد سقطت فى أيدى المماليك منذ عام ١٢٦٨م.

وعلى هذه الصورة نجح روجر فى إقرار سلطة شـارل كونـت أنجـو وملـك أبوليا على مملكة بيت المقدس فى عكا ، ثم بدأ العمل على تنظيم الأحوال الإداريـة للمملكة ، وساعده فى ذلك بعض المستشارين الفرنسيين الذين حضـروا معـه مـن بلاط الملك شارل ، فعين جيمس فيدال James Vidal مارشالا للمملكة ، وريتشارد أف نيوبلان Richard of Neublans كندسـطبلا ، وأودو بوالشـيان Odo Poilechien صنجيلا(٦٩) .

أما عن موقف الدولة المملوكية من هذه الأحداث فيبدو أن السلطان بيـبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٩م) قد استراح كثيرًا بعد فشـل حملـة لويـس التاسـع وحلفائـه على تونس عام ١٢٧٠م . ولم ينزعج كثـيرًا عندمـا قـدم الأمـير الإنجليزى إدوارد بحملته على بلاد الشـام ، رغـم أن بيـبرس كـان يـأمل فـى عـدم قـدوم نجـدات أو حملات صليبية إلى بلاد الشام . والمهم هنـا أن الأمـير إدوارد حـاول التحـالف مـع المغول والقيام بحملة مشتركة ضد المسلمين ، ولكن هذا التحالف فشل فـى إحـراز أى نصر على القوات الإسلامية لقلة إمكانيـات الأمـير الإنجليزى ، وعـدم تعـاون النبلاء الصليبيين معه بالإضافة إلى عدم التنسيق بين القـوات الإنجليزيـة ومـا والاهـا من القوات المغولية(٧٠) . وعندما أحس إدوارد بأن لا فائدة ترجى مـن بقائـه فـى بلاد الشام ، بادر قبل رحيله بعقد هدنة بين الصليبيـين وبـين السـلطان بيـبرس فـى مايو ١٢٧٢م مدتها عشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات ، وقـد توسط شارل كونـت أنجـو بسـفارة بـين السـلطان والأمـير الإنجليزى لعقـد هـذه الهدنة(٧١) .

والواقع أن توسط شارل لم يأت من فراغ فقد كان مشغولاً بالتخطيط لمهاجمة القسطنطينية ، وفى الوقت نفسه كان يود الإبقاء على الأحوال الصليبية فى بلاد الشام بأمل أن تكون له فى يوم من الأيام ، كما أنه يود الإبقاء على صلات طيبة مع دولة المماليك فى مصر والشام . وفى الوقت نفسه كان السلطان بيبرس يشعر بأن شارل كونت أنجو هو الحاكم الأوربى الوحيد الذى بإمكانه أن يقدم الدعم العسكرى للامارات الصليبية فى بلاد الشام ، وأن تاريخه السياسى والعسكرى يشير إلى ذلك ، فقد ساهم شارل فى الأعمال العسكرية للحملة الصليبية السابعة ، وسافر مع أخيه الملك لويس إلى عكا ، ثم كانت مغامراته السياسية حتى استولى على عرش صقلية وجنوب إيطاليا ، وكان له دور بارز فى التدخل فى انتخابات البابا لعرش البابوية ، بالإضافة إلى سيطرته على جانب من أملاك الإمبراطورية البيزنطية(٧٢) . لذلك كله حرص السلطان بيبرس على بقاء العلاقات الودية مع شارل خاصة أن الأخير كان لا يحب المغول أعداء بيبرس باعتبارهم أصدقاء الجنويين والأباطرة البيزنطيين .

ولما كانت سياسة شارل قائمة على كراهية البيزنطيين وحلفائهم الجنويين ، لذلك أصدر شارل التعليمات إلى روجر نائبه فى مدينة عكا للإبقاء على التحالف مع البنادقة والداوية لأنهم كانوا سندا له منذ وصوله إلى عكا . هذا بالإضافة إلى إقامة العلاقات الودية مع الحكام المماليك . وبدأ شارل فى الالتفات إلى ملكه الجديد فى بلاد الشام ، خاصة عندما أحس أن البابا لا يشجعه على القيام بمحاولة مهاجمة القسطنطينية ، بعد ما وعد الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوج بأن تخضع الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية فى القسطنطينية للكنيسة الكاثوليكية فى روما تحت راية البابوية(٧٣) .

ورغم محاولات روجر نـائب الملـك شـارل فـى بسـط سـيطرته علـى جميـع أراضى ممكلة بيت المقدس الأسمية فـى مقرهـا بمدينـة عكـا ، فقـد كـان هنـاك مـن المشاكل ما أزعجت استقرار سلطته . ومحور هذه المتـاعب أن شـارل تـولى حكـم المملكة بالخداع والقوة ، وبدون موافقة المحكمـة الصليبيـة العليـا فـى عكـا . ومـن القلاقل التى واجهت روجر فى عكـا أن جماعـة فرسـان الاسـبتارية وبطريـق بيـت المقدس تومـاس أنجـى Thomas Angi (١٢٧٢ - ١٢٧٧م) وآخريـن لم يسـاندوا شارل فى دعواه . وقد حاول مقدم الداوية وليم بوجيه أن يضـم إلى جانبـه يوحنـا أف مونتفورت John of Montfort حاكم صور وتبنين (١٢٧٠ - ١٢٨٣م) ، ثم قـام بالتوفيق بين يوحنا والبنادقة ، وسمح يوحنا للبنادقة بالعودة إلى ممتلكاتهم وأحيـائهم القديمة فى صور على ضـوء اتفـاق ينـاير ١٢٦١م ، الصـادر مـن المحكمـة العليـا ، ورغم هذا كله ظل يوحنا لا يعترف بشارل ملكًا على مملكة بيت المقدس(٧٤) .

وكان روجر يأمل فى المزيد من التأييد للملك شـارل ، ولكـن حـدث غـير ذلك ، فقـد وصـل إلى مدينـة صـور فـى عـام ١٢٧٩م هيـو الثـالث ملـك قـبرص والمطالب الرسمى بعرش مملكة بيت المقـدس (١٢٦٨ - ١٢٨٤م) ، وكـان يـأمل فى مساعدة النبلاء له وإقرار سلطته كملك على البلاد . والواقع أنه لم يلق التـأييد إلا من يوحنا أف مونتفـورت . لذلـك عـاد مـرة أخـرى إلى قـبرص بعـد أن أنحـى باللائمة على جماعة فرسان الداوية لمساندتهم شارل ونائبه ، ولم يعد بوسعه سـوى مصادرة ممتلكاتهم فى جزيرة قبرص . وقد اشتكى مقدم جماعة فرسان الداويـة إلى البابا نيقولا الثالث Nicholas III (١٢٧٧ - ١٢٨٠م) ، فطلـب البابـا مـن ملـك قبرص إعادة أملاك الداوية إليهم ولكن الملك القبرصى لم ينفذ تعليمات البابا(٧٥).

وقد أثمرت سياسة العلاقات الودية التى أقامتها حكومة شارل فى عكـا مـع الدولة المملوكية . من ذلك أنه فى سـبتمبر عـام ١٢٨٠م ، نـزل فـى شمـال الشـام

فجأة جيش مغولى لمهاجمة القوات المملوكية قبل أن يتمكن السلطان قلاوون (١٢٨٠ - ١٢٩٠م) من تثبيت مركزه فى عرش الدولة ، فقد كان فى تلك المرحلة وصيا على الصبى سلامش ابن السلطان بيبرس . وقد توغل الجيش المغولى حتى وصل إلى حلب فى العشرين من أكتوبر من العام نفسه ، بعد أن سيطر على عين تاب وبغراس ودربساك وغير ذلك بمساعدة القوات الأرمينية ولكن القوات المملوكية نجحت فى التصدى للقوات المغولية فعادت أدراجها إلى ما وراء نهر الفرات(٧٦) .

ويهمنا فى هذا البحث قدوم سفارة مغولية إلى مدينة عكا تطلب من حكومتها التعاون العسكرى لحملة مقبلة للمغول تأتى من شمال الشام . وفى الوقت نفسه كان السلطان قلاوون قد اعتلى عرش الدولة المملوكية وأخذ يتحرى تحركات المغول ، فأرسل إلى حكومة شارل فى عكا يستطلع منهم موقفهم من تحركات المغول ويطلب عقد الهدنة مع مندوب الملك شارل ، ولكن أحد سفراء السلطان قلاوون نصح المسؤلين فى حكومة عكا بعدم عقد الهدنة مع قلاوون لأن بقاءه فى العرش غير مستقر . ونظرًا للعلاقات الودية التى تربط روجر نائب شارل فى عكا بالسلطان ، فقد أرسل روجر إلى قلاوون يبلغه بالأمر . واحتاط قلاوون لحماية عرشه ، وقبض على المتآمرين ووأد المؤامرة فى مهدها . ويبدو أيضًا أنه علم بالتخطيط المغولى المقبل لغزو بلاد الشام من حكومة عكا ، والدليل على ذلك أنه بعد انتصار قلاوون على المغول فى معركة حمص التى وقعت فى نهاية الثلاثين من أكتوبر عام ١٢٨١م ، أى بعد حوالى عام من الغزو المغولى السابق ، وهو أول غزو مغولى بعد التحذير ، قام روجر نائب الملك شارل بالتوجه إلى دمشق أو الروحاء لمقابلة قلاوون وتهنئته بانتصاره على المغول (٧٧) .

وتزعزع مركز حكومة شارل فى عكا فى العام التالى (١٢٨٢م) ، ففى وقت الغروب يوم الثلاثين من مارس حدثت فتنة فى مدينة بالرمو ثم انتشرت فى كل أنحاء صقلية وهلك فيها حوالى أربعة آلاف فرنسى تحت شعار (الموت للفرنسيين) ، وهو ما يعرف فى التاريخ باسم المذبحة الصقلية The Sicilian Vespers(٧٨) . واهتز على أثرها حكم شارل فى صقلية وجنوب إيطاليا ، ولذلك استدعى شارل نائبه روجر من عكا ، فغادر المدينة بحرًا فى نهاية العام بعد أن عين مكانه صنجيل المملكة أودو بوالشيان(٧٩) .

وقد تأثرت دولة المماليك باهتزاز سلطة نائب شارل فى عكا ، إذ خسرت شبه حليف لها ، لذلك بادر السلطان قلاوون بعرض تجديد الهدنة التى سبق أن عقدت بين السلطان بيبرس وحكومة عكا فى مايو ١٢٧٢م وتوسط فيها شارل كونت أنجو . وقد وافق أودو بوالشيان على ذلك ، ولكن وضعه القانونى لم يمكنه من التوقيع على وثائق الهدنة بمفرده ، لذلك وقع معه على الوثائق قومون عكا والداوية فى صيدا وعثليث(٨٠) . ويرى البعض أن الذى وقع على الوثائق مقدم الاسبتارية(٨١) .

وعلى أثر هذه الأحداث حاول هيو الثالث ملك قبرص استعادة حقه فى عرش مملكة بيت المقدس ، فاتجه من قبرص إلى مدينة بيروت ، فوصلها فى أول أغسطس ١٢٨٣م ، ثم أبحر إلى مدينة صور ، ولكنه لم يلق قبولاً من قومون عكا وجماعة فرسان الداوية ، وفضلوا البقاء على ولائهم ومساندة أودو بوالشيان نائب الملك شارل ، ولم يرحبوا بالملك هيو ، لذلك بقى الملك فى مدينة صور حتى ينجلى الموقف ، ولكنه مالبث أن مات بالمدينة فى الرابع من مارس فى العام التالى (١٢٨٤م)(٨٢) .

وخلف هيو ابنه يوحنا على عرش قبرص (١٢٨٤ - ١٢٨٥م) ، الذى حاول استرداد حقه فى مملكة بيت المقدس فأبحر إلى مدينة صور وتوج فى المدينة نفسها ملكًا على مملكة بيت المقدس ، وانتظر لبعض الوقت ، ولكنه لم يجد التأييد سوى من صور وبيروت فعاد إلى قبرص ، ولكنه لم يعش طويلاً فمات فى العشرين من مايو ١٢٨٥م ، بعد أن حكم لمدة عام واحد(٨٣) .

وكان شارل كونت أنجو قد مات فى السابع من يناير من العام نفسه فى مدينة فوجيا Foggia ، ثم نقل جثمانه بعد ذلك ودفن فى كاتدرائية مدينة نابلى(٨٤) ، وخلفه على العرش ابنه شارل الثانى (١٢٨٥ - ١٣٠٧م) ، وانشغل بمشاغله الداخلية و لم يلتفت إلى مملكة بيت المقدس .

وقد خلف يوحنا ملك قبرص أخوه هنرى الثالث (١٢٨٥ - ١٣٢٤م) ، الذى لم يحاول التوجه إلى عكا فى تلك المرحلة حتى ينجلى الموقف . وفى العام التالى (١٢٨٦م) تشجع هنرى وأبحر من قبرص واتجه إلى مدينة عكا مباشرة فوصلها فى اليوم الرابع من شهر يونيه ، واستقبله قومون عكا بالترحاب ، ويفهم من ذلك وجود ترتيب مسبق لقدوم هنرى إلى المدينة ، وأن الطريق أصبح ممهدًا لاستعادة حق أسلافه وحقه فى عرش مملكة بيت المقدس الأسمية . ولكن أودو بوالشيان رفض تسليم قلعة المدينة رغم اختلاف الأوضاع عن الظروف السابقة ، لأن الداوية الذين اعتادوا مساندته من قبل تخلوا عنه تلك المرة وإلتزموا الحياد، كما أن الاسبتارية والتيوتون التزموا الحياد أيضًا فى ذلك الصراع . ولكن المفاوضات والظروف اللاحقة ، وما لمسه أودو من ضعف موقفه أقنعته بتسليم القلعة ، فدخلها هنرى فى موكب حافل فى التاسع والعشرين من الشهر نفسه(٨٥) .

وعلى هذه الصورة يكون حكم شارل فى مملكة بيت المقدس الذى يوصف بالاغتصاب قد انتهى فى عكا ، كما انتهى فى صقلية وجنوب إيطاليا منذ عام

ونصف تقريبًا ، وأبحر أودو بوالشيان ، وعادت مملكة بيت المقدس الأسمية بمركزها مدينة عكا إلى أصاحبها الشرعيين ، ثم ما لبثت أن سقطت عكا فى عام ١٢٩١ م فى أيدى المماليك .

والخلاصة أن شارل كونت أنجو الفرنسى الأصل تطلع إلى أمـلاك النورمـان ومن بعدهم أسرة الهوهنشتاوفن فى صقلية وجنوب إيطاليا بمساعدة شرعية ومادية من البابوية أعداء أسرة الهوهنشتاوفن ومعاونـة عسـكرية ومادية مـن أخيـه لويـس والقوات الفرنسية . ثم امتدت يداه إلى أملاك الدولة البيزنطية ونجح فى ضم بعـض الأراضى لفترة محدودة .

كذلك نجح فى تحويل حملة أخيه لويس علـى تونـس لضـرب الثـائرين عليـه والمسلمين الذين ساعدوا مانفرد وكونرادين ، ولكـن مكاسبه انحسـرت فـى جمـع بعض الأموال وعقد معاهدة مقابل خسارة أسطوله الذى تحطم عند عودته . كمـا أنه ادعى أنه ملك مملكة بيت المقدس الأسمية وسيطر لبعض الوقت على مقدراتها ، ونجح فى فرض سلطانه على جـانب مـن هـذه المملكـة . وأخـيرًا يمكـن القـول أن شارل ولد أميرًا ، وعاش غريبًا فى داره مكروها من عائلته ، وقضى حياته مغامرًا، ومات بعيدًا عن بلاده ودفن فى مدينة نابلى .

الهوامش

(1) Joinville and Villehardouin, Chronicles of The Crusades, Penguin, 1963, pp. 191, 226.

(2) La Mone, The World of the Middle Ages, New York 1949, p. 192.

(3) Hallam, Capitian France (987 - 1328), London 1983, p. 207.

(4) Runciman, The Sicilian Vespers, Cambridge, 1958, p. 71.

(5) Villani, G. Selections From The first Nine Books of The Croniche Florentine. Tran. Rose E. Selefe, Westminster, 1896, pp -199 - 200, Sedgwick, Itlay in The Thirteenth Century, Boston, 1912, Vol.II, pp. 44 - 90.

(6) Runciman, op. cit., pp. 71 - 2.

(7) Hallam, op. cit., p.215.

(8) Matthew Paris, English History. tran. J. A. Giles. London, I, 263 - 8.

(9) Mathew of westminster, The Flowers of History, tran C. D. Yonge, London, 1853, II, p. 354.

(10) Mathew Paris, op. cit., II, p. 43.

(11) Hallam, op. cit., p. 223.

(12) Runciman, op. cit., p. 73.

(13) Joinvill and Villehardouin, op. cit., p. 196.

(14) Runciman, op. cit., pp. 73 - 4.

(15) Mathew of Westminster, op. cit II, pp. 247 - 9.

(16) Mckillian, Chronicle of The Pope, London, 1912, p. 317.

(17) Villani, G, op. cit., pp. 190 - 3.

(18) Ibid, pp. 190, 202 - 3.

(19) Matthew of Westminster, op. cit., II, p. 445.

(20) Anna Comnena, The Alexiad, Penguin, 1969, pp. 124 ff, 135 ff, 142.

(21) Fulcher of Charters, A History of The Expedition to Jerusalem, The University of Tennessee U. S. A. tran. France Rita Ryan, 1969, pp. 98 ff.

(22) John Kinnamos, Deeds of John and Manual Comnenes, New York, 1976, p. 76.

(23) Ernoul, Chronique, Paris, 1871, p.p. 305 ff.

(24) Ducellier, A. Byzance et Le Mond Orthodoxe, Paris, 1986, p315.

(25) Pierre Dubois, The Recovery of The Holy Land, tran. Walther I. Brandt New York, 1956, p. 172.

(26) Villani, G. op. cit., p.p. 213 - 6.

(27) Hendrickx, B. Regestes Des Empereurs Latins De Constantinople (1204 - 1261/ 1272), Thessaloniki, 1988, p.184.

(28) Gesta des Chiprois, R. H. C Arm. vol. II, Paris, p. 763.

(29) Runciman, op. cit., p. 132.

(30) Ibid., Loc. Cit.

(31) Hendrickx, B. op. cit., pp. 184 - 5.

(32) Leonard, E., G. Les Angevins de Naples, Paris, 1954, pp. 105-6.

(33) Hendrickx, B. op. cit., p. 184.

(34) Runciman, op. cit., p. 137.

(٣٥) ابن العبرى : تاريخ الزمان – دار المشرق – بيروت ١٩٨٦ – ص ٣١٦ ، الهمذانى : جامع التواريخ – دار النهضة – بيروت ١٩٨٣ – ص ١٢٥.

(36) Leonard, E. G. op. cit., pp. 105 - 6.

(37) Vambery, A. Hungary, London, 1889, p. 146.

(38) Runciman, op. cit., p. 138.

(39) Villani, op. cit., pp. 240 - 1.

(40) Runciman, op. cit., p. 139.

(41) Ostrogorsky, G. History of The Byzantine State, tran. Joan Hussey, Oxford, 1956, pp. 405 - 6.

(٤٢) الزركشى : تاريخ الدولتين الموحديه والحفصية – تونس ١٩٦٦ – ص٣٢.

(43) Matthew of Westminster, op. cit., II, p. 451.

(44) Villani, G. op. cit., pp. 215 - 17.

(45) Runciman, op. cit., p. 141.

(46) Villani, G. op. cit., p. 247.

(47) Joinville, op. cit., pp. 345 - 6.

(48) Villani, G. op. cit., p. 247.

(49) Runciman, op. cit., p.142.

(50) Joinville, op. cit., p. 350, Matthew of Westminster II, op. cit, 451.

(51) Ibid., Loc. Cit.

(52) Joinville, op. cit., pp. 346, 350, Villani, G., op. cit., pp. 249 - 250.

(53) Ibid, p. 249.

(54) Villani, G. op. cit. p. 250.

(55) Runciman. op. cit., pp. 143 - 4.

(56) Villani, G. op. cit., p. 250.

(57) Matthew of Westminsters, op. cit, II, pp. 353 - 5.

(58) Villani, G. op. cit. pp. 250 - 1 .

راجع أيضًا : ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر- تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر - الرياض ١٩٧٦م ص ٢٧٣ - ٢٧٤ ، ٣٨٢.

(59) Runciman, op. cit., p. 145.

(60) Hayton, La Flor des Estoires de Terre d'Orient. in R. H. C. Arm. vol. II, p. 171.

(61) Lettre des Chrétiens de Terre Sainte à Charles d' Anjou in Revue de L'Orient Latin, vol II. Paris 1894. pp. 213 - 4,

ابن العبرى : المصدر السابق - ص ٣٢٤ .

(62) Ostrogorsky, op. cit., p. 399.

(63) Lettre des Chrétiens de Terre Sainte, op. cit., 211 - 215.

(64) Eracles II, L'Estoire, in R. H. G. Occ. vol II, p. 456.

(65) Gesta des Chiprois, pp. 771, 773, 777.

(66) Eracles II, pp. 476 - 7, 479.

(67) Gesta des Chiprois, p. 783, Eracles II, pp. 478 - 9.

(68) Gesta des Chiprois, pp. 783 - 4, Eracles II, pp. 483 - 4 .

(69) Ibid, pp. 478 - 9.

(70) Gesta des Chiprois, pp. 777 - 8.

(٧١) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص ٣٩٧ - ٣٩٨

Eracles II, p.461.

(72) Mckillian, op. cit., p. 326.

(73) Ostrogorsky, op. cit., p. 402.

(74) Eracles II, pp. 474 - 5, Gesta des Chiprois, p. 783.

(75) Eracles II, pp. 478 - 9.

(٧٦) أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر - دار المعرفة - بيروت - (د . ت) جـ٤ ص١٢ - ١٣ ، بيبرس المنصورى : التحفة الملوكية فى الدولة التركية - نشر دكتور عبد الحميد صالح حمدان - الدار المصرية اللبنانية - القاهرة - ١٩٨٧م - ص٩٤ - ٩٥ .

(٧٧) أبو الفدا : المصدر السابق - جـ٤ - ص ١٤ - ١٥ ، ابن العبرى : المصدر السابق ٢٤٠ - ٢٤١ ، بيبرس المنصورى : المصدر السابق - ص٩٧ .

(78) Villani G. op. cit, p. 267 - 8.

(79) Gesta des Chiprios, p. 489.

(٨٠) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور . ونص الهدنة منشور فى

Gabrieli, F., Arab Historians of The Crusades, University of California Press, 1969, pp. 326 - 331.

راجع أيضًا المقريزى: السلوك -جـ١ ق٣- القاهرة ١٩٣٩ - الملحق(٨) ص ٩٨٥-٩٩٧.

(٨١) بيبرس المنصورى : المصدر السابق - ص٩٦ .

(82) Gesta des Chiprois, pp. 789 - 91.

(83) Ibid, p. 792.

(84) Villani, G. op. cit., pp. 275 ff.

(85) Gesta des Chiprois, pp. 792 - 3.